

كلمة (فند شمع)

(من أين جاءت ؟ وكيف استعملت ؟ وشي من تاريخها)

أضع اليوم رسالة بعنوان (مكتبة آل المغربي بطرابلس الشام . وصفها وتاريخ جمعها وذكريات عنها) وقد كنت في الكتابة في هذا الموضوع رصيفي الاستاذ الفيكنت فيليب دي طرازي . لأنه مزعم تأليف كتاب باسم (خزائن الكتب العربية) وهو الكتاب الذي نوّه به الاستاذ رئيس المجمع في الجزء الأول من السنة الماضية .

وبينا اننا استعرض كتب خزانتنا اذا كتاب من مخطوطاتها عنوانه (كتاب شرح ديوان ابي العلاء المعري لابن الدرة) (كذا بالهاء ذات النقطتين في آخرها) وتحت هذا العنوان عنوان آخر هذا نصه (سَفَطُ العقيان والحلي لعروس ديوان ابي العلاء . بل ضوء الفند . من سقط الزند . للمرحوم الشيخ محمد الدرا) كذا بالألف في الآخر بدل الهاء) وهو أحسن شروحه اه وقد قال المؤلف في مقدمة شرحه مانصه (وقد كنت حين الشروع في هذا الشرح سميته (سَفَطُ العقيان والحلي لعروس ديوان ابي العلاء ثم اني بعد الفراغ منه والاطمأن . رأيت في عالم الخيال والمنام . اني استقدح زنداً . واستصبح منه فنداً . فعبرت ذلك ان سميته : ضوء الفند . من سقط الزند) ثم قال المؤلف في خاتمة الكتاب إنه فرغ من تأليفه في جدة سنة ١٠٦٤ هـ وبيض المؤلف منه اربعة كرايس الى ان قدم بلده دمشق . وتوفي فيها سنة ١٠٦٥ هـ وقام بعده ابن اخته عبد الحق بن علي الدرا فأكمل يياض الشرح في سنة ١٠٩٥ هـ ولعل مخطوطة خزانتنا هي نسختها التي كتبها عبد الحق . وقد بحثت عن نسخة أخرى سواها لدى آل الدرا وفي المكتبة الظاهرية وفي فهرست دار الكتب المصرية فلم اظفر بشي . والسفط بالفاء المفتوحة وعاء الطيوب والجواهر ونحوها . اما تسمية الكتاب بالاسم الثاني اعني (ضوء الفند) فهو موضع تساؤل : من اين جاءت

كلمة (فند) الى لغتنا العربية واذا لم تكن عربية بل دخيلة معرفة فكيف جاز للمؤلف ان يستعملها منذ ٣٠٠ سنة ؟

عهدي بكلمة (فند) وتضاف الى الشمع فيقال (فند شمع) - أنها عامية محضة وكنت من يوم نشأت اسمع الناس في طرابلس يقولون (فند شمع) ويريدون بالشمع الشمع الذي يستضاء به بل اذا انعمنا النظر في كلامهم نراهم يريدون به في اكثر الأوقات عدة شمعات تباع في غلافها اتخذ من الورق الشخين الالزرق . ويقال احيانا (دزدينة شمع) مكان (فند شمع) وقد راجعت عن كلمة (فند) كل ما عندي من كتب اللغة فلم اعثر عليها كما راجعت معجم شمس الدين سامي ومعجم لاروس والمعجم الانكليزي فلم أرها بين كلمات هذه اللغات وسألت اخواننا اهل دمشق عما اذا كانوا يستعملونها في لهجتهم اليومية فقالوا انهم لا يعرفونها . ولا سمعوا بها . فمن أين وصلت الى مؤلف (ضوء الفند) وهو دمشقي النشأة والوفاء حتى سمى كتابه بها منذ ثلاثة قرون . ثم خطر لي ان اراجع معجم اليسوعيين (الفرائد الدرية) فوجدته يقول (فند الشمع وجمعه فنود Bougie. Cierge) وضبطاه (فند) بالكسر وعهدي بالطرابلسيين انهم ينطقونها بالفتح . وجمعها في الفرائد على فنود والاقيس ان تجمع على افتاد اذا صح انها مكسورة الفاء . وقد وضعت أمامها العلامة التي تفيد ان الكلمة عربية عامية وان اكثر استعمالها بين عامة لبنان . لكنه (اي صاحب الفرائد) لم يشر الى المعدن التي منه نبتت . وعنه اغتربت . فمن أين جاءتنا اذن ؟

وأخيراً رجعت الى الحاج علي أكبر الشيرازي وهو شيخ معمر من النزلاء الايرانيين بدمشق وقد اعتدت ان استفتيه في الكلمات الفارسية او الايرانية الحديثة فلعل (فندا) من هذه الكلمات وقلت له انها تدل على معنى الشمع فقال انه لا يعرفها وانما يعرف كلمة (فندك) ويتذكر أنه وهو صغير في شيراز كان يرى ادمه يتخذون اناه صغيراً من زجاج يملونه ماء ويصبون على الماء مذوب الشمع وعلى الشمع شمعة او فتيلة صغيرة يستضيئون بها في الليل مكان البترول وانهم يسمونها (فندك)

هذا ما قاله فلعل كلمة (فندك) جاءت مع السلع التي كانت ترد إلينا من إيران في القرن الماضي وما قبله ثم حُرِّفَت إلى كلمة (فند) واظتناداً على الشمع . وإثناء الاستصحاب الذي ذكره الحاج علي أكبر يسمي في دمشق (إدارة) وفي طرابلس الشام (نواصة) و (إرّاية) وإذا لم يصح أن (فند) إيرانية وإن أصلها فندك . كان لنا أن نتبناها نحن معشر العرب ونُدَّعي عربيتها حتى تقوم لغة أخرى فتستلحقها . وثقيم الدليل على نسبتها إليها :

* * *

(الفند) بكسر الفاء لها في اللغة العربية عدة معان لا يمكن أن يكون معنى (الفند) جاء منها . اللهم إلا من معنيين :

(الأول) أن الفند يكون بمعنى (الطائفة من الليل) كما في نهاية ابن الأثير . فهل يسمح لنا أن نقول أن استعمال (فند الشمع) جاء من هذا المعنى على تأويل أن الظلمة تنجاب وتكشف بنور هذا الشمع . ولا أنكر أن في هذا التوجيه تكلفاً : لأن الظاهر أن يقال : شمع الفند أي شمع الظلام لا فند الشمع أي ظلام الشمع (الثاني) أن (الفند) في اللغة يكون أيضاً بمعنى الفصن من أغصان الشجر . وفند الشمع أو شمعاته هي شبيهة بأغصان تغرس ليلاً في المجالس . فيُجَنَّى منها بدل الثمار نوراً يطرد الخناس . فهل يوافقني قارئ الكريم على أن معنى (الفند) جاء من هذا المعنى المجازي ثم تنوحي بالمرّة أن الفند بمعنى الفصن وصار يفهم منه معنى الشمع حتى صار الشمع معنى حقيقياً له . ومثله كثير في كلمات اللغة العربية : تكون الكلمة مجازاً ثم تصبح بسبب تواتر الاستعمال حقيقة .

نرجع إلى عبارة المؤلف (الدرّاء) في مقدمة كتابه وهو قوله (استدح زندا . واستدح منه فندا) فمعناه : استوري من الزند نوراً كنور الشمع . وقوله (سميته ضوء الفند من سقط الزند) السقط الشرر المتناثر من الزند . فيكون المعنى : سميته ضوء الشمع المستخرج من شرر الزند . مرئياً بذلك أن شعر أبي العلاء كالشرر

فهو (اي المؤلف) استخراج منه نوراً . ازداد به الشرر ظهوراً . لكن المؤلف لو قال
(على سقط الزند) مكان (من سقط الزند) لكان احسن
وقال ناسخ المخطوطة عبد الحق الدرا في آخرها مانصه (ولم تزل هذه اللؤلؤة
(بمعنى كتاب خاله) في صدفة المسودة . تمضي عليها مدة بعد مدة . وهي كالعتقاء .
يسمع اسمها . ولا يرى جسمها . حتى كادت تخفى . ونور هذا الفند يطفي . إلى
أن يسر الله تبييضها الخ

فانظر كيف ان كلمة (فند) قد مرنت عليها السنة الدماشقة في ذلك العهد .
الى هذا الحد . ويزيدك دلالة على ذلك ان المؤلف لم يفسر في كتابه لمن جاء
بعده معنى كلمة (الفند) مع انه فسّر نحو الف كلمة من عويص الكلمات . ونسي هذه
الكلمة الواحدة التي جعلها اسماً لكتابه . ولا سيما انه سنجت له اللفظ المناسب لتفسير
معنى (فند الشمع) . وذلك انه فسّر لنا في تأليفه قول (ابي العلاء) يخاطب الدهر:
(تستأثر العقبان في جوها وتزل الأعصم من فنده)
فسر كلمة (الفند) بالقطعة من الجبل لكنه لم يفسر لنا كلمة الفند بمعنى الشمع .
ومن أية لغة جاءت ؟ ومن أي جانب على لغتنا دمرت ؟ ألا يكون هذا من
مواضع العجب ؟

ولقائل ان يقول ان المؤلف رأى كلمة (الفند) معروفة المعنى مألوفاً الاستعمال
بين اهل زمنه ومثلها لا يحتاج الى تفسير . وهذا كما اذا قام احدنا والف رسالة
في تكذيب ما تناقلته العرب من اخبار الغيلان وسمى رسالته (إيقاد البترول على
اخبار النول) أثراه يفسر لنا معنى كلمة (البترول) الأجمية ؟ . وهكذا اشتهرت
كلمة (الفند) بمعنى الشمع بالنسبة الى الدماشقة في زمن المؤلف فأصبح تفسيرها
بما لا حاجة اليه

على ان كلمة (فند) ان كانت عادت فماتت في دمشق فانها لم تزل حية - في ما
أظن - في طرابلس الشام وما يليها من مدن الساحل .

وتتبع تاريخ كلمات اللغة ونطورها بحث لغوي جديد يحتفل له علماء اصول اللغات من علماء اوربا . فينبغي للشتغلين منا في علم اللغة ان ينحروا هذا العلم الطريف جانباً من عنايتهم واهتمامهم

وبينه المناسبة تقول : انه كان قديماً لصنع الشمع والمتاجرة به سوق رأبجة في دمشق : أيام كان ركب الحج والحجاج يغدون ويروحون بين الشام والحجاز وكان الحجاج واهلهم ومودعوم يهدون ويندرون الشموع للمسجد النبوي والأضرحة الشريفة . وكان في دمشق معامل وعمال وعائلات ترتزق من صنع فنود الشمع . وما زال الى اليوم يسمى بعض هذه العائلات بالشماع . ففي هذا المحيط تولدت كلمة (الفند) بمعنى الشمع وكذلك تولدت مثل هذا التولد بين النصارى بالنسبة إلى الشمع الذي يهدى من مزارات القدس وإليها كذا أخبرني ليف من تساوسة الروم الأرثوذكس .

* * *

والشيخ محمد مؤلف ضوء الفند ترجمه المحي في (نفحة الريحانة) وفي (خلاصة الأثر (جزء ٤ ص ٢٤٩) وتكرر اسمه فيه بلفظ (الدرا) بالألف لا (الدرّة) بالهاء . وقال عنه : إنه حضر دروس الشيخ عبد الرحمن العمادي والنجم الغزي . ورحل الى القاهرة . وجاور بمكة . وعمل فيها شرحاً على (سقط الزند) ثم ادركه المرض ولم يكمل الشرح !! وجعل كتابه يرسم خزانه الشريف (زيد بن محسن) وقال : إنه ولد سنة ١٠٢٨ هـ وتوفي بدمشق سنة ١٠٦٥ هـ ودفن بجبانة باب الصغير اه غير ان المحي اخطأ في قوله : ان المؤلف لم يكمل شرحه على سقط الزند بل تقول إنه اكمله تأليفاً . لكنه لم يكمله تبييضاً . فأكمل تبييضه ابن اخته (عبد الحق) كما نقلناه عن مخطوطتنا في صدر مقالنا هذا .

اما ان اسم المؤلف (الدرّة) بالهاء او (الدرا) بالألف فأذكر خلاصة ما سمعته من الاخوان الدمشقيين في التفرقة بينهما قالوا : في دمشق امرتان بهذا الاسم احدهما مقيمة في دومة احدى مدن الفوطة . والاسرة الأخرى وافدة من حمص واوطنت دمشق منذ القديم . وزاد آخر فقال والأسرة الدومانية هي التي تكتب (الدرّة) بالهاء

على اسم الطائر المعروف الذي يسمنا صوتاً يحكي كلام الناس . اما الأميرة المحصية فيكتب اسمها (الدرآ) بفتح الدال وبالألف المقصورة وزاد ثالث ان اصل (الدرآ) (الدرآء) بهمزة في آخرها على وزن غرآء فقصرت قال : وإنما لقيت هذه العائلة بالدرآء لأن رجالها اشتهروا بخاصة جزيلة النفع إلهية الصنع : ذلك ان المرضع من النساء اذا خانقها درآتها . وخافت على طفلها . قصدت كبير بيت الدرآ فيضع يده المباركة على ثديها . ويتلو دعاءً عجيباً توارثوه بينهم فيستدر لبنها . وتصبح (درآء) غزيرة اللبن . بعد ان كانت (جدآء) لا لبن في ثديها .

اقول : لكن اهل اللسان لا يعرفون كلمة (الدرآء) بمعنى المرأة ذات الدر وانهم ربما يقولون في صفتها (درور) لا (درآء) فقولهم (الدرآ) اذن من مخترعاتهم وعلى هذا يكون معنى (بيت الدرآ) العائلة المنسوبة الى المرأة (الدرآء) التي ردوا لفتيتها . وأرجعوا إليها درآتها . وهناك احتمال آخر وهو أن تكون كلمة (الدرآ) محرفة عن (الدرآة) بمعنى لبن المرضع الذي يسيل من ثديها . ومؤلف (ضوء الفند) من هذا البيت على ما يقال .

المغربي

